من حزيران لحزيران

غسان سلامة

بين حزيران العربي (١٩٦٧) وحزيران اللبناني (١٩٨٢) ألف رابط ، سأختار واحداً قبل غيره : كان مؤرخ بريطاني سنة ١٩٦٧ يدرّس في الجامعة الاميركية في بيروت وهو شهد في الصباح شباب ما سوف يصبح لاحقاً « بيروت الغربية » يتدافع في الشوارع ، انتفاضاً لكرامة عربية مداسة . عشرات الالوف من الغاضبين ، الحزانى ، المهزومين ، المرتبطين بالقاهرة وبالقدس وبدمشق وبكل العواصم المندحرة في ذلك اليوم ، والسائرين عن وعي ، عن تشبث ، أو عن بحث لا واعٍ عن اب ، في خطى عبد الناصر . ينتقل المؤرخ ، في اليوم عينه إلى كسروان ، قلب لبنان الماروني ، حيث يرتاح من عبء بيروت ومن جماهيرها الصاخبة . فيلحظ ، بعد ظهيرة ذلك اليوم ، قدراً كبيراً من الطمأنينة والهدوء ، وقدراً خفراً من الشماتة الباسمة .

ذلك ان حرب حزيران ١٩٦٧ فتحت الباب على مصراعيه امام الحرب الأهلية اللبنانية . كيف ؟ عن ألف طريق ، أهمها أن النظام اللبناني هو في الأساس نتاج توازن اقليمي ـ دولي هش . ذلك ان سنة ١٩٥٨ الدامية كانت قد أدّت إلى اعادة تركيب للتوازن الداخلي اللبناني على اسس جديدة . فالتيار الشديد الانعزالية في النخبة الحاكمة أضطر للتراجع أمام توازن جديد طرفاه مصر الناصرية (وقد استطاعت التمركز في دمشق القريبة بفضل الوحدة المصرية ـ السورية ، وكانت هذه بعد في اوج شعبيتها) والولايات المتحدة الاميركية التي ارسلت المارينز انذاك ، ودبلوماسياً (مورفي الأول) الذي كان حريصاً على ترجمة التوازن الاقليمي الجديد لبنانياً ، لا على اعتبار لبنان مدخلاً لتعديل التوازن الاقليمي كله ، كما سيفعل فيليب حبيب (والى حد ما مورفي الثاني) سنة ١٩٨٢ عن جهل وتسرّع .

كانت الشهابية في لبنان تعبيراً عن هذا النسق الاقليمي الجديد ، حيث استطاعت واشنطن الحفاظ على الكيانات لقاء ثمن دفعته الناصرية الناشطة في كل مكان . كان ثمن الوحدة مع سوريا ميل عبد الناصر لقمع الشيوعيين في مصر وسوريا . اما في الاردن فكانت المقايضة على إبقاء الاسرة الحاكمة من جهة ، وعلى رأس غلوب باشا من جانب اخر . في العراق كانت المقايضة تقوم على تكريس الانعزالية الاقليمية مقابل تغيير عميق في النظام الداخلي .

الخروج الفلسطيني من بيروت عام ٨٢

امّا في لبنان فقد ترجم النسق من جهة إلى تأكيد عبد الناصر على استمرار الكيان مقابل تطوير عصراني في النظام على يد « الجزء المتنور » من النخبة الحاكمة ، بقيادة اللواء فؤاد شهاب .

وتحولت السياسة اللبنانية إلى هدف تكريس هذه المقايضة . داخلياً ، تم ذلك من خلال بناء المؤسسات القانونية والاقتصادية والاجتماعية العصرية ، ولو ان شهاب ، على كرهه الشديد للنخبة السياسية ، لم يحاول (او هو لم يجرأ ، أو هو لم يرغب في) تعديلها بصورة اكثر جذرية . فتحالف مع كمال جنبلاط وصبري حمادة ورشيد كرامي وبيار الجميّل وهو الرباعي التقليدي الذي ربط الشهابية بصورة متينة باللعبة اللبنانية التقليدية وبالزعامات المحلية وبالاطار البرلماني ـ شبه الاقطاعي . وهو كان الضمانة ، ازاء المجتمع الأهلي ، على ان الشهابية لن تتطور لتمس بالنظام الطائفي بصورة معمقة .

اما خارجياً فكانت المقايضة تقضي بأن يكون لبنان مؤيداً لمصر الناصرية على المستوى العربي ، على ان يحتفظ بعلاقاته المميزة بالغرب سياسياً ودبلوماسياً وثقافياً . وعلى هذا الاساس لعب سفير مصر (عبد الحميد غالب) دوراً بارزاً في السياسة اللبنانية ، كمحامٍ نشط عن مقايضة ١٩٥٨ ، يدافع عنها أمام ضغوط حلفاء

القاهرة (لا سيما بين المسلمين) المطالبين بتنازلات جديدة ، ويمنع الطرف اللبناني الآخر من السير بها شططاً نحو الغرب .

هذه المعادلة الدقيقة لم تستمر طويلاً . لم تكن الأسباب اللبنانية هي الطاغية في هشاشة المعادلة . فالنظام استطاع أن يقمع بنجاح نشاط السياسيين السوريين المعادين للوحدة بين مصر وسوريا والذين كانوا قد استقروا في بيروت . والنظام استطاع أن يقضي على انقلاب عسكري قاده الحزب القومي السوري ضد الشهابية والناصرية معاً . والنظام استطاع ان يتخلّى عن حلفاء الايام الاولى (مثل صائب سلام وريمون اده) دون ضرر كبير على استقراره .

كان مرد الهشاشة ، الانحدار المستمر في حجم ومستوى تأثير القاهرة السياسي في المنطقة . وبالنسبة للبنان كانت العلامة المميزة هي انفصال سوريا الناجح في ١٩٦١ . وبعدها جاءت الضربات متتالية من دخول الجيش المصري في متاهات حرب اليمن الى قيام تحالف سعودي - ايراني سنة ١٩٦٥ سوف ينبثق عنه لاحقاً « الحلف الاسلامي » المعروف ، ناهيك عن فشل محادثات الوحدة السورية - العراقية - المصرية سنة ١٩٦٣ ، وعن استيلاء تيار بعثي على السلطة في سوريا سنة ١٩٦٦ كان يحاول تجاوز الناصرية من على يسارها . ثم جاءت حرب ١٩٦٧ ، بهزيمتها المفجعة ، وباثارها المدمرة لتشكل ضربة قاضية في مسار انحداري طويل .

في لبنان ، كان رئيس الجمهورية الذي خلف فؤاد شهاب (شارل حلو) يدفع بهدوء بلبنان نحو التأقلم التدريجي مع تغير ميزان القوى الاقليمي . فكلما ضعف التيار الناصري في المنطقة ، كان حلو يبتعد بعض الشيء عن المدرسة الشهابية التقليدية ، بحيث اصبحت « الحلوية » ، نوعاً من السياسة القصيرة المدى ، والتي لا تخلو من قدر من الانتهازية ، والتي ستحمل لبنان تدريجياً من التحالف مع مصر الى تكوين ساحة يتسرب منها اعداؤها .

أتت سنة ١٩٦٧ لتدفع إلى مقدمة المسرح باللاعبين الاساسيين في الحرب الأهلية القادمة . عربياً ، كان من نتائج الهزيمة ذلك الانبهار الواسع بتجارب ثورات التحرر الشعبية القائمة على حرب العصابات . فتعاظم شأن المقاومة الفلسطينية في المنطقة ولا سيما في لبنان والاردن . غير انه ، بعد قيام السلطة الاردنية بضرب الفلسطينيين بعنف في معارك ١٩٧٠ في عمان ، و ١٩٧١ في جرش وعجلون ، انتقلت القيادة الفلسطينية إلى بيروت . وكانت قد استطاعت ، سنة ١٩٧٩ ، باللعب على التناقضات اللبنانية ، وبقدر من الدعم السوري والمصري ان تحصل من السلطة اللبنانية على اتفاق شهير رعاه جمال عبد الناصر . وجاء في الاتفاق قبول لبنان « بحق العمل والاقامة والتنقل للفلسطينيين المقيمين في لبنان » وقبوله باستيلاء لجان فلسطينية على ادارة المخيمات وبوجود نقاط للكفاح المسلح فيها . وقبل لبنان ايضاً بتسهيل مرور المسلّحين الفلسطينيين . وبقي هذا الاتفاق قائماً (مبدئياً) مع ملحقات واضافات اخرى (سنة ١٩٧٣) إلى ان ألغاه مجلس النواب اللبناني من جانب واحد ، وبصورة مفاجئة في ٢١ ايار / مايو ١٩٨٧ .

وفي مقابل الطرف الفلسطيني ، نشأ الطرف الاساسي الآخر في الحرب المقبلة وهو ما أصطلحَ على تسميته « بالمارونية السياسية » . هذا التيار وجد في هزيمة ١٩٦٧ مدداً وقوة فانفصل بصورة حاسمة عن المدرسة الشهابية وانشأ تجمعاً واضحاً في هويته السياسية هو « الحلف الثلاثي » (كميل شمعون ، بيار الجميل ، ريمون اده) وهو حلف كان يسعى للتحالف الوثيق مع اعداء عبد الناصر في المنطقة ومع الغرب بهدف القضاء على المدرسة الشهابية تماماً . ولم يكن هذا الحلف ليقوم لو لم تحصل هزيمة ١٩٦٧ فيقتنع حزب الكتائب أن في الانفصال عن الشهابية ربح سياسي مضمون .

وهكذا فجرّت حرب ١٩٦٧ معادلة هشة عاش عليها لبنان نحواً من عقد ، وعرف خلالها استقراراً واضحاً ، ونمواً اقتصادياً يحسد عليه . كان الجيش ، وهو عماد السلطة الشهابية ، بعيداً عن هذين الطرفين الناشئين . فالجيش كان يناهض داخلياً الحلف الثلاثي بالنظر لتهجمات الحلف المستمرة عليه ، وعلى تدخله في السياسة ، اعتماداً على نظريات ليبرالية مبالغ بها . ولكنه كان يناهض التمركز الفلسطيني في لبنان ايضاً ، لأنه كان يلمس فيه تعدياً على سيادة لبنان التي كان قد عيّن نفسه حامياً لها . وهكذا اختلف لبنان عن الاردن بالذات ، في هذه المسافة الواسعة بين التيار الاساسي النشط في النخبة المحلية وبين اداة النظام الاساسية (الجيش) . هذه المسافة ، هذا الحذر المتبادل ، هذا التشنج الواضح بين الجيش والمارونية السياسية هي العناصر التي ستسمح للفلسطينيين بالتمركز في لبنان . وقد احسنت قيادتهم في ذلك الوقت باعطاء امال بالدعم لكل من الفريقين الداخليين المتنافسين على رئاسة الجمهورية التي آن موعد انتخاباتها سنة ١٩٧٠ ، والتي ستسفر عن هزيمة واضحة للمدرسة الشهابية . وهي هزيمة كانت في الواقع مزدوجة ، اذ بدأت برفض فؤاد شهاب ترسيخ نفسه مرة اخرى للرئاسة وانتهت بهزيمة مرشحه الياس سركيس بفارق صوت واحد ، اسماه غسان تويني في افتتاحية شهيرة في جريدة النهار البيروتية « صوت الشعب » .

ولكن عن اي شعب كان الصحافي المرموق يتكلم ؟ فالشعب كانت قد بدأت تنتابه موجات التناحر الفج ، كان عدد من اللبنانيين قد قرر دعم الفلسطينيين او الالتحاق بهم . ولكن الأمر كان أخطر بكثير من هذه المئات والآلاف . فانحسار المدرسة الشهابية (التوفيقية) كان يعني ايضاً ان العناصر التقليدية التي قامت عليها سوف تتفرق أيدي سبأ ، وسيلتجيء كل منها إلى أصوله ، وسيتجذر في تلك الاحوال . فحزب الكتائب ، الذي كان في الستينات ميالاً للعب دور صلة الوصل بين الدولة والقاعدة المارونية ، اصبح الآن ملتصقاً بتلك القاعدة ، دائراً ظهره للدولة ، ولفكرتها .

وجنبلاط (واحزاب اليسار معه) ، بعدما أيّد الشهابية أصبح الآن على رأس معارضة واسعة تتكلم يومياً ، في مهرجانات وصحف واضرابات ، عن ضرورة تغيير النظام . أما القيادات السنية التقليدية ، فبعد ان تخاصمت لفترة طويلة على كل شيء ، بدئا بتنافس العائلات وانتهاء بتنافس بيروت وطرابلس ، اصبحت مجتمعة على مطلب المشاركة الفعالة في السلطة لرئيس الوزراء (السني) على حساب رئيس الجمهورية (الماروني) . وبين الشيعة برز التجذر في اساليب مختلفة منها تعاطف بعض النخبة التقليدية مع المطالب السنية بالمشاركة ، ومنها مشروع بناء طائفي / ديني حول زعامة السيد موسى الصدر ، وكان هناك من ابناء الطائفة من انخرط في أحزاب اليسار او في المقاومة الفلسطينية .

وهكذا نمت الروح الجذرية في كل مكان ، ولكن بصورة تزداد تناقضاً فور صمت المدافع بعد حزيران ١٩٦٧ . كان اطراف الحرب المقبلة يجّهزون أنفسهم لها . حصل الصدام الواسع الاول سنة ١٩٦٩ بين الجيش والفلسطينيين . وفي سنة ١٩٧٣ ، كان الجيش (او بعضه) يحظى بمساعدة بعض الميليشيات المحلية . وفي سنة ١٩٧٥ انفجرت الحرب على اشدها ، وما لبث الجيش ان انقسم وبرز طرفا الحرب دون قناع . فحرب لبنان التي بدأت سنة

١٩٧٥ هي بنت هزيمة ١٩٦٧ غير الشرعية . هي الحدث الجانبي المطلوب منه أن يغطي انعدام الحدث على الجبهة الرئيسية . هي الوحل الذي ورّط فيه نفسه من كان يعتقد بقدرته على توريط الآخرين في حروب حقيقية . هي المسلك الذي حاول فيه بعض اللبنانيين ان يستفيدوا من حرب ١٩٦٧ لالغاء كل الفترة بين الاستقلال (١٩٤٣) والهزيمة التي كانت تجنح بلبنان تدريجياً نحو تمتين هويته العربية .

وكان حليف هؤلاء في الستينات حليفاً عربياً وايرانياً (شاهنشاهياً) وغربياً . لكن هذه التحالفات الجزئية ، المبتورة ، مع اطراف متلكئة في الدعم ، خائفة من الارتباط مع قوى اختارت

أبو اياد : رحلة الآفاق البعيدة ... بعد الغزو الاسرائيلي للبنان عام ١٩٨٢

الخط الطائفي المكشوف ، بعيدة في الجغرافيا ، ما كانت لتشفي غليل . من هنا إنزلقت هذه القوى الى تحالفات أخرى . لفترة بدا فيها ان سوريا هي البديل . ولكن سوريا ما كانت لتضمن الردة الكاملة داخلياً وعربياً التي كان بعضهم يسعى إليها . فحصل الانزلاق الخطير تدريجياً نحو ارتباط باسرائيل ، كان في الافق منذ قيام اسرائيل سنة ١٩٥١ بالتدخل الهامشي ، في تمويل حملة بعض المرشحين للانتخابات النيابية ، واتضح سنة ١٩٧٦ من خلال « الجدار الطيب » الذي اقامه شيمون بيريز مع سعد حداد ، وبتأكد سنة ١٩٧٨ بعد معركة الاشرفية بين القوات اللبنانية والسوريين .

بعدها كان هدف هذا التيار « توريط » اسرائيل . ويجب الاقرار له بالنجاح . فلم يكن هناك بالفعل من مؤشرات نحو تدخل عسكري اسرائيلي واسع في لبنان . لكن الظروف الداخلية والاقليمية تطورت بسرعة ، وفقاً لسيناريو تراجيديا يونانية نحو هذا الحدث . فالقيادة الاسرائيلية اصبحت في يد متهورين متطرفين مثل مناحيم بيغن وأريال شارون . وتوقيع كمب ديفيد جمّد لبعض الشيء الخلاف السوري ـ الفلسطيني القديم بحيث خف الضغط على منظمة التحرير . وسياسة التدخل المحدود في جنوب لبنان (كما في غزو ١٩٧٨) لم تنجح ، ناهيك طبعاً عن نمو قدرة لبنانية واضحة بدت وكأنها قادرة على الاستفادة من غزو اسرائيلي شامل ، وعلى إفادة الغزاة ايضاً .

حصل الغزو سنة ١٩٨٢ وكأن حزيران لم يعد الا شهراً تستقر فيه الاحوال الجوية في شرق المتوسط بحيث يتمكن الطيران الاسرائيلي من قصف المواقع على الأرض . وكانت سنة ١٩٨٢ هزيمة عربية أخرى . ولكن شتان ما بين الهزيمتين ! كانت الأولى ضربة لمرحلة تاريخية ، ولقيادة تاريخية ما زلنا نعيش حتى الساعة في خضم اثارها . بينما لم تكن هزيمة ١٩٨٢ الا حدثاً عابراً على الجميع . فلم يهتم العرب لها ، لا حكوماتهم ولا الجماهير . ولم تحقق اسرائيل فيها اهدافاً كبيرة ، وبعض الايجابيات التي حصدتها ما لبثت ان تبخرت . ولم تتوقف الحرب في لبنان بل استمرت ولو بصورة أخرى وبلاعبين جدد . ولم تخرج « كل القوى الاجنبية من لبنان » كما كان رونالد ريغان يعد بتعجل « صديقة » امين الجميّل . ولم ينفذ اتفاق ١٧ ايار بين لبنان واسرائيل . كما جمد بعده اتفاق ثلاثي بين الميليشيات اللبنانية وقع تحت رعاية سورية ولا يبدو أن الاطراف المتقاتلة لحظت فعلاً انه عليها ان تغيّر ضحايا تلك الحرب ، لا سيما بين المدنيين ، وبين نتائجها على الأطراف المتقاتلة .

كانت حرب ١٩٦٧ هزيمة كاملة . اما حرب ١٩٨٢ فقد كانت في جوهرها محاولة اسرائيلية فاشلة لتغيير ميزان القوى اللبناني لصالحها . من هنا لا تخلو مقارنة الحربين والهزيمتين من بعض التجني على الواقع والحقيقة ، فالأمر مختلف وجوهره اننا غير قادرين في هذه الايام على اي امر كبير . حتى هزائمنا اصبحت صغيرة ، لأن سياستنا صغيرة ، صغر حي وشارع وطائفة ومنبر وقائد يسعى للبقاء في موقعه .

من هنا ، فإني أشك في ان حزيران ١٩٨٢ كانت حدثا كبيرا في تاريخنا المعاصر . واعتقد انها اقرب للحدث العابر الذي لا يمسّ الا القريبين منه كثيراً . البدء يبقى هزيمة ١٩٦٧ التي ما زلنا نعيش في كنفها وتجاعيد وجهها وحضنها الواسع . وما حصل بعدها من تفشي الانفاق النفطي والحروب الصغيرة والاتفاقات المنفردة وتفجر الولاءات العشائرية والطائفية والتفكك الواسع في الجسم العربي ما هي الا نتائج . وقد تكون حرب ١٩٨٢ فعلاً ، إضافة اسرائيلية هامشية وغير موفقة على انتصارها التاريخية سنة ١٩٦٧ .

اما فيما يخص الفلسطينيين ، فالنتيجة تبدو واضحة اليوم وهي ان لبنان ، بعكس ما اعتقد بعضهم وبعض اللبنانيين ، لم يكن يوماً الميزان الحقيقي لمستقبل قضيتهم . فهذه تتقرر على ارض فلسطين ، في شوارع القدس العتيقة وبين جدران جامعة بيرزيت . فلا انتصاراتهم في لبنان كانت فوزا ولا هزائمهم كانت نهاية لقضيتهم . فلندع الخطابات الفارغة جانباً ونعترف بان لبنان كان وما زال هامشيا في دينامية الصراع العربي ـ الاسرائيلي .

اما لبنان ذاته ، وحربه مستمرة ودامية ، فالحق يقال أنه يحتاج لسلم أهلي حُرم منه الوقت الطويل . لقد لعب لبنان دوراً مزدوجاً : لقد روّج للايديولوجيات والسياسات والأفكار ثم ما لبث ان تحوّل مقبرة لها جميعاً . ولقد آن له أن يسلك سبيل الوداعة بعيداً عن طموحات بعض ابنائه الخيالية . فلبنان ليس مدخلاً للسلم ولا هو فعلاً باب للحرب . هو ساحة لم يعرف ابناؤها كيف يحافظوا على أمنها . هو وظيفة لم يدرك ابناؤه حدودها . هو وطن آن لابنائه ان يفكّروا ببنائه .